الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

بلدية القنادسة ولاية بشار

القنادسة لا أحد يعرف من أين نبع هذا الاسم. هل جاء فعلا من قندس الدال على اتخاذ زاوية من أجل العبادة؟ ذاك تأويل متداول. كانت تسمى فج الريح، ثم العوينة في مرحلة ثانية ، ثم عرفت بهذا الاسم مع مجيء سيدي محمد بوزيان أي مع قدوم المرابطين.

تقوم القنادسة على عمودين :المدينة القديمة وأساسها الزاوية الزيانية و القصر و المسجد العتيق ، والمدينة الأوربية التي أسست على الاستغلال الاقتصادي للاستعمار الغاشم، وهو التقسيم المتواتر في الحديث والذاكرة، وربما الحلم، لأن الواقع خلط ملط. لقد استوت الأشياء واختلط الحابل بالنابل، ولم تبق سوى المكابرة وبعض الجهود المخلصة من أجل الحفاظ على ذاكرة العمران والمكان من الممارسات المفترسة.

تتوسط زاوية القنادسة القصر القديم الذي بني حولها، وهي مبنية على الطريقة التقليدية :طوب وحجر، ومسقوفة بالقصب أو الدفلى، لأن المادة الأخيرة مرّة ولا تأكلها الحشرات، وللجريد دوره كذلك. لقد ظلت النخلة مصدر رزق حقيقية منذ قرون، وسخية دائما. تدعوك القنادسة ببساتينها المحيطة بالقصر و مناظرها الخلابة لتقطف رائحة النعناع بعد فتور القيلولة.

تتميز الزاوية بطبيعة الأقواس وعددها الذي تجاوز العشرة، وكل قوس له مسوغاته، أما الباب الخفيض الذي يجعلك تحني قامتك فيدل على قداسة المكان وهيبته، لذا لا يمكن ولوجه إلا مطأطئ الرأس، احتراما وتحية له. أما التأويل الآخر فيركز على التهوية، من المنظور الهندسي، على شاكلة ما هو في بعض عمران الأجداد، عربيا كان أم بربريا. عليك أن تجلس في الزاوية كما فعل الأوائل. ثمة أفرشة أصيلة و وسادات وشاي وفول سوداني ، ذاك بعض ما بقي من شخصية الجنوب وكرم العروبة ، ثم الأحاديث والحلقات و الدروس التي توارثتها الأجيال بعفوية، وبقناعة أحيانا. على الجدران المقابلة، كما على الأبواب شعار الزاوية الزيانية: العافية الباقية، ولا غالب إلا الله، العبارتان المتواترتان ، منقوشتان في الجبس أو مكتوبتان لكنهما لازمتان لا يمكن تجاوزهما. ما زالت الصحراء بخير إذن، ولا داعي للشرح من هنا مرّت عدّة شخصيات بارزة: مؤرخون وكتاب ومحاربون وسياسيون ومثقفون، إذ أنه حيز ممتلئا بالتاريخ، شكلا ودلالة، وإحالة على الجانب الديني بالدّرجة الأولى.

تنسب الزاوية إلى سيدي محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي زيان الذي يمتد نسبه إلى الحسن المثنى بن الحسن السبط بن سيدنا علي بن أبي طالب من سيدة نساء أهل الجنة السيدة فاطمة الزهراء بنت سيدنا محمد (صل الله عليه وسلم)، أثبت هذه الشجرة محمد المصطفى بن الحاج البشير القندوسي في مخطوطه "طهارة الأنفاس" الذي ألفه في مناقب شيوخ الطريقة الزيانية الشاذلية بالقنادسة، وقد ذكر فيه محمد بن عبد الرحمن (1652-1732).

ويبدو أن الشيخ كان محل اهتمام العلماء وطلاب العلم. يقول تلميذه الفاسي الشريف إدريس بن محمد المنجرة الكبير المتوفى عام(1724) في مخطوطه "عذب الموارد" (المكتبة الوطنية بالرباط، رقم د. 1838)، بعد زيارة القنادسة في حدود عام ,1722 في حديثه عن شيوخه" :ومنهم الشيخ الفقيه الإمام أبو الإقبال الحاج الأبر صاحب الكرامات سيدي محمد بن عبد الرحمن بن أبي زيان نزيل الصحراء قبل جبل بشار .له أحوال وكرامات يبوح بها ويفشيها ويحب ذكرها وله حال في التصريف. لقيته ببلده واستفدت منه ولقنني وواعدني وصرّح لي بما أرجو الله في حصوله وأكثر."..

أصبحت الزاوية اليوم قبلة للمهتمين بالتراث ومختلف النشاطات التي تقام دوريا، وفي المناسبات الدينية، أي أنها مركز إشعاع يجمع السكان والمهتمين بالشأنين الثقافي والتراثي.و ما الاحتفال بمولد سيد البرية في هذه البلدة إلا مظهر من مظاهر الاحتفالات بالمواسم الدينية (للبلدية قدارت من جانب السياحة الدينية)

لقد عملت الخزانة القندوسية على جمع المخطوطات النادرة القديمة التي تمّ ترتيبها ، وهي كثيرة ومتنوعة (على سبيل المثال لا الحصر) : الذرر النفيسة في ذكر جملة من حياة الشيخ سيدي أحمد بن موسى للشيخ مولاي التهامي غياري (مؤسس الزاوية الموساوية)، تاريخ الشيخ بن عبد الكريم المغيلي وشجرته للطيب بن عبد الله بن سالم بن عبد الله البلبالي، الياقوتة لسيدي عبد القادر بن محمد المتوفى سنة 1025ه، مخطوط أبي سالم عبد الله بن محمد بيرك، محمد رشد، مارتن إيدموند قوفيون، محمد ولد الشيخ (محمد بن آغا شيخ بن عبد الله 1906-1938م الذي يعتبره بعض أهل القنادسة أول من

كتب الرواية في الجزائر، ويعدّ نصّه الموسوم: مريم في النخيل، تجربة رائدة وهو نص مكتوب باللغة الفرنسية). وفي البهو صور وشهادات(على سبيل المثال لا الحصر) الجنرال دو كولمب (1823-1902) الذي أطلق اسمه على المدينة من قبل الفرنسيين تقديرا لخدماته الجليلة، إيزابيل إبهارت "سي محمود"، الكاتبة المعروفة التي عاشت متنكرة في ناحية عين الصفراء (1877-1904)، ويعتقد أنها عاشت ثلاثة شهور في القنادسة. وإذا كان لوسي هوبار ليوتاي هو الذي أرسلها، في الاعتقاد الشائع، فمعنى ذلك أنها لم تكن كاتبة فحسب، بل أنها لعبت دورا ما مع الأجهزة العسكرية، بيد أن هذا مجرد تخمين، فرضية تدفعنا، ولو من باب الفضول إلى البحث عن حقيقة هذه المرأة التي تخلّت عن أوربا لتعيش في قيظ الرمل ومدّه.

ويمكننا أن نقرأ هذه الرسالة التي كتبها الماريشال لوي هوبار ليونتي (1854-1934) لمعرفة استراتيجية المستعمر وطريقة تفكيره: "إنّ إقامتكم في غرب جبل بشار لا تتمثل فقط في احتلال نقطة في الخارطة، ولكن في احتلال منطقة. الأمر لا يتعلق بزرع مركز عسكري، بل بمركز عمل وتأثير. يجب أن تشعر المنطقة كلها قريبا بأنها بين أيدينا، ماديا ومعنويا."

ماديا ومعنويا: خلاصة معبّرة عن كل ما حدث ويحدث حاليا، دون أن نستفيد كثيرا من هذا الدرس التاريخي المرعب الذي يلخص وضعنا ومرجعيتنا وتذبذبنا وانتماءنا الفعلي.

الصلاة بمسجد سيدي أمحمد أو بالمسجد العتيق هناك شيء آخر، إحساس غريب بالحلول في الزمن والمساحة، بعيدا جدا عن اعتداءات الإسمنت التي هي افتراسا علينا لذاكرة العمران الذي كان ينبض معرفة وحياة.

لم تكن المدينة التي طالما وُصفت بالهادئة والتي يفوح منها عطر التاريخ والثقافة بهذا الشكل قبل سنة 1970، فخلال 1908 التي تُعدُّ سنة قلبت تاريخ هذه البلدة التي تبعد عن عاصمة الولاية بشار بـ 18 كم تقريبا - فكان لعثور أحد أهالي القنادسة آنذاك على تراب أسود لامع جاهلا أنه يسمى بالفحم أو "الكوك" كما يعرف محليا، ولم يكن من هذا المكتشف الأول لهذه المادة إلا أن يسارع إلى شيخ الزاوية آنذاك، حيث أثار إعجابه هو الآخر الشيء الذي دفعه إلى استدعاء حاكم بلهادي الذي كان يدعى (CAEVANE) الذي قام بدوره بإرسال، عينة منه إلى حاكمه بـ"العين الصفراء" ومنها تم إيصالها إلى الجزائر العاصمة ثم إلى فرنسا حيث تم إجراء التحاليل عليها من طرف أكبر مخبري بأوربا في ذلك الوقت ويدعى "فلاموند" الذي أثبت بعد تحاليل جيولوجية ميدانية بأن القنادسة حوضٌ منجمي ينتمي إلى الكاربونيفيل وأسال لعاب فرنسا الاستعمارية التي وجهت اهتمامها وأطماعها إلى هذا الحوض المنجمي الهائل بالتركيز على التنقيب حيث استخرجت أول كمية من الفحم الحجري رسميا سنة 1917م لتستغله فيما بعد في إنتاج الطاقة عن طريق نقل المادة الأولية عبر القاطرات إلى الجنوب الوهراني ومن ثم إلى أوربا عبر السفن وتشير التقارير التاريخية إلى أنه عند استخراج أول كمية من الفحم من منجم القنادسة نقلت إلى تلمسان فإسبانيا ثم إيطاليا على متن السفن.

دخول منجم الفحم الحجري بالقنادسة حيز النشاط من طرف فرنسا حول تلك البلدة الهادئة بصوفيتها و زاويتها و قصرها إلى بلدة لا تنام بفعل العمل المتواصل الذي فجر ثورة صناعية كانت مؤهلاتها نائمة لقرون لكن من المستفيد من المتضرر من كل ذلك؟

سعت فرنسا منذ أن انتهت من مرحلة التنقيب إلى توجيه أنظارها إلى سواعد أبناء القنادسة والمدن المجاورة لتستغلهم في العمل تحت الأنفاق لمدة 8 ساعات كاملة وبأجور زهيدة، كما يروي هؤلاء الذين حولت مناجم الفحم أجسادهم إلى بؤر للأمراض القاتلة بفعل إصابتهم بداء السيليكوز الذي قضى على معظم الذين عملوا في مناجم الفحم بالقنادسة ومن تبقى على قيد الحياة لا زال يصارع هذا المرض الذي نخر صدورهم رغم أنهم يؤكدون أن فرنسا آنذاك عرضتهم على أطباء ألمان وأكدوا إصابتهم بهذا الداء وأن علاجه من المستحيلات لكن رغم ذلك لم تتوان فرنسا في التضحية بهم لصالح اقتصادها الذي عرف انتعاشا انعكس على أوربا كلها ما جعل قدماء المناجم يدركون اليوم أن على فرنسا تعويضهم عما لحق بهم من أمراض وإعاقات لأن وضعهم لا يقل خطورة عن ضحايا التجارب القنبلة الذرية برقان والإشعاعات الكيماوية بواد الناموس وحتى ضحايا الألغام التي ما تزال تفتك بسكان المدن الحدودية.

ولعل ما بقى من ذكريات التاريخ الاقتصادي للقنادسة يختزله المركز البلدي للتراث الذي يتوسط القنادسة والذي لازال يحتضن على رفوفه ما تبقى من عتاد ووسائل استخدمها الفرنسيون بمنجم الفحم وصور العمال الجزائريين وأجسادهم تعانق طبقات "الشربون" ، آلة فوتوغرافية تعود لسنة 1912، مصابيح غازية كانت تستعمل لإضاءة الأنفاق وحبال منجمية، وسائل اتصالات، أدوات خاصة بقياسات البناء، وبقايا قطع حربية مستعملة ضد الثورة. زيادة على حافظة ميزان يدوي، أحجار معدنية تعود لما قبل التاريخ، وصور لأروقة منجمية يبلغ طولها أحيانا ألف متر، وكذا صور قديمة لعمليات استخراج الفحم الحجري.

وبهذا كانت القنادسة التي تقع بالجهة الغربية لعاصمة الولاية بشار تكون أول مدينة عبر الوطن أضيء بها مصباح منذ اكتشاف الفحم بها من طرف المستعمِر الفرنسي، فاستخراج الفحم الحجري جعل القنادسة العاصمة الاقتصادية للجنوب الغربي بامتياز وكانت الشركات التي عملت بالنشاط الاستخراجي للفحم هي régie de chargement والتي تحوّلت فيما بعد إلى شركات كبيرة سميت لاحقا بـhouilléré du sud oranais . وأصبحت القنادسة تستقبل آلاف العمال الباحثين عن مناصب صورهم بالمتحف البلدي لا تزال تنطق عنهم.

واستنادا إلى بعض الوثائق والكتابات التي دونها صحفيون أجانب عن تاريخ المنجم آنذاك وتحتفظ بها الخزانة القندوسية فإنه في 1946 بلغ عدد سكان الدائرة 14000 نسمة منهم 1500 معمّر أوروبي من جنسيات مختلفة.

كانت المدينة تصدر الفحم بكميات كبيرة نحو أوروبا بواسطة السكة الحديدية مرورا بالمغرب، إلا انه ومع مطلع الثورة التحريرية، عرف إنتاج الفحم تدهورا كبيرا بسبب هجرة الكثير من العمال والتحاقهم بالثورة التحريرية. بعد الاستقلال تم اقتصار استخراج الفحم فقط للمركز الكهربائي ببشار الجديد، حيث كانت أول منطقة على المستوى الإفريقي في استغلال الطاقة الكهربائية. و في العام 1975 تقلّص عدد العمال من 3000 إلى 300 عامل، بعد إحالة عدد منهم على التقاعد، ليتوقف استخراج الفحم نهائيا بعد سنة 1975 . ولم تبقى سوى اطلال شاهدة على التاريخ .

أنجز سد جرف التربة ما بين سنتي 1966 و 1968 في مدخل الخانق الصخري لجرف التربة (الواقع ما بين بلديتي القنادسة و المريجة على بعد 65 كلم من عاصمة الولاية بشار) على وادي غير ، الذي يأخذ منابعه من جبال المغرب الأقصى .

وقد وضع حجره الأساس الرئيس الراحل هواري بومدين، وتعد فترة إنجاز السد وجيزة مقارنة مع حجمه الأولي المقدر بـ 350 مليون متر مكعب. و بذلك فهو أحد السدود الكبيرة المنجزة مباشرة بعد استقلال البلاد، حيث يصل طول جداره المشيد بالخرسانة 950 مترا وعرضه 6.20 مترا و ارتفاعه 37 مترا. ويشكل جدار السد في نفس الوقت جسرا تعبر عليه السيارات و المركبات المتجهة نحو بلدية المريجة .

الملاحظ أن حجم السد تقلص إلى 260 مليون متر مكعب بسبب التوحل الذي أتى على 25 بالمائة من سعته الأولية. سعة امتلائه الفعلية تقدر بـ 156 مليون متر مكعب. ووظيفة هذا السد مزدوجة (الشرب و السقي الفلاحي) . يضخ يوميا 40 ألف متر مكعب نحو محطة تصفية المياه الموجهة للشرب لسكان عاصمة الولاية بشار و القنادسة و العبادلة. ويطلق في المتوسط يوميا 90 ألف متر مكعب في الوادي تذهب إلى سقي محيط العبادلة الذي يبعد عن السد مسافة تقدر بحوالي 58 كلم.

وظيفة السد في البداية كانت مقتصرة على توفير مياه السقي الفلاحي لسهل العبادلة إلا أنه عندما حدثت فترة جفاف سنتي 1984 و 1985 تحتم تزويد المواطنين بمياه الشرب من السد و تم إنجاز قناة طولها 65 كلم بقطر 800 ملم لتوصيل المياه إلى بشار والقنادسة والعبادلة.

يشهد سد جرف التربة كل نهاية أسبوع وخلال العطل المدرسية وغيرها (وعلى الخصوص حين ترتفع الحرارة) إقبالا منقطع النظير من طرف سكان ولاية بشار وما جاورها للتنزه ، أو من قبل زوار الولاية لأغراض ومهام مختلفة . هذا بالإضافة إلى الزيارات اليومية الأخرى للمواطنين الذين يقصدون السد لقضاء أطول وقت ممكن على ضفافه . السد يوفر مناخا مصغرا منعشا في بيئة صحراوية شديدة الحرارة . و يزداد الإحساس بمتعة المكان من خلال الجلوس تحت ظلال

أشجار الغابة (أيام الحر) الملامسة لمياه السد والمنبسطة على مد البصر والمداعبة للبابسة بلطف. ينتابك الشعور وأنت تعيش هذه اللحظات النادرة المفعمة بنسيم منعش وكأنك على أجمل سواحل البحر في شمال البلاد وتنسى أنك في عمق الصحراء .

عدد المواطنين الذين يأتون للتجول والاستراحة على ضفاف السد يعد بالآلاف خاصة في أوقات العطل والفصل الحار نظرا لأن هذا المكان هو الوحيد الذي يشكل استثناء بمناخه المصغر اللطيف حول محيط البحيرة الكبيرة للسد التي تغطي مساحة 22 كلم مربع.

كما يعد صيد الأسماك من أهم الهوايات التي يمارسها عدد هام من المواطنين حتى أنه تم تأسيس جمعية للصيد التقليدي لأسماك السد تضم 2000 عضوا. ويحقق المواطنون بممارسة هذه الهواية متعا عديدة. فإضافة إلى الترفيه عن أنفسهم فهم يمارسون هواية طهي السمك و تناول طعامهم مجتمعين ومنهم من ينصب خيمة ويقضي ليلته هناك.

يجب أن نعتذر للأرض و للرمل وللأجداد الذين عاشوا هنا وتركوا لنا علامات نتكئ عليها لنعرف من نحن، حتى لا نسيخ أو نهيم على وجوهنا في أرض الربّ، بلا أعين و بلا بوصلة، مثل سحاب الصيف الذي لا يعرف وجهته ومعناه ووظيفته. وقبل هذا أو بعده، علينا أن نعيد تأثيث الذاكرة بتاريخنا علنا نبرأ من التيه، ثمة دائما في هذا الوطن ما يدعو إلى البهجة والتفاؤل، بعيدا جدا عن محدودية النظر إلى الراهن وإلى الأفق، وقريبا من زاوية مثل زاوية القنادسة حيث يتلألأ الماضي وامتداداته، وحيث يترقرق شلال الدلالات: دلالاتنا.

الخزانة على مستوى القصر القديم

منجم الفحم الحجري

القصر القديم